

اللّوّيّة

إلهام دويري

قراءة مفتوحة في نتاج

إلهام دويري وإبداعاتها في أدب الأطفال

فاروق مواسي*

سيرتها:

إلهام دويري تابري ابنة الناصره شخصيه تربوية لها دورها في التثقيف التربوي، فهي قد حصلت على شهادة M.A في موضوع (الببليوغرافيا) - أي العلاج عن طريق الكتاب أو النص، وقد شهدنا مؤخراً كثرة كتابتها في الصحف، واستضافتها في المؤسسات الأكاديمية المختلفة، فهي متخصصة في مناجي اهتمامها.

أصدرت إلهام عدداً من قصص الأطفال هي سلسلة "فراش" الخاصة بالفئة العمرية بين الثالثة والعشرة، وأصدرت كذلك سلسلة (هنا) الخاصة بالجيل المبكر (من الرضاعة حتى السنة الخامسة)، ولها قصة علاجية تعالج موضوع العنف العائلي "يا ناس"، وقصة أخرى تعالج موضوع الطلاق "في بيتنا طلاق"، كما أن لها مجموعة قصص (بائع الزنابق والورود).

أما القصص الدينية فلها فيها "بلال في شهر رمضان"، و"هدية بابا نويل". ولها من الحكايات كذلك سلسلة "كشكش"، منها: "كشكش يحب أن يطير"، "لوذة في الشارع"، "جسم كشكش" و"أسنان كشكش".

من الجدير أن أذكر أنها أسست "دار الإلهام للنشر"، ويساعدها في إنجاح مهمتها ابنتها فاتن قطوف - المهندسة المختصة بفن التخطيط المعماري، وقد رافقت الكاتبة - أمها - في الإخراج الفني لمعظم مجموعاتها. كما يساعدها في الرسم ابنها كمال الحاصل على شهادة فن (الجرافيك) من كلية غوردون.

* باحث ومحاضر في أكاديمية القاسبي.

أهمية الحكاية للطفل في مرحلة الرضاعة:

هناك من يدعونا إلى ضرورة إسماع الطفل (الجنين) وهو في بطن أمه أولًا من الموسيقا، من هنا فإن إلهام قد اهتمت بأن تختار للرضيع القصة التي تتتوفر فيها العناصر- كالرسوم الجميلة والقراءة المشوقة والموضوع الملائم - كل ذلك بإيقاع لغوي موسيقي يشجعه على الإصغاء بمتعة. عند إصغاء الرضيع للسرد القصصي فإنه ينصت ويستقبل- حتى على المستوى الخارجي- مفردات وعبارات، فإذا ما شاهد المثيرات البصرية كالرسوم من محيطه فإن ذلك يثير معرفته وينشط حب الاستطلاع لديه .

ولإلهام في هذا المجال قصة "تعرفون من أنا؟ أنا اسمي هنا"، ولنقرأ: "أنا أحب المصاصة مع أرنوبي الصغير. وأنام بجانب صوصي الأصفر بالسرير". والمحتوى بصورة عامة هو من واقع حياته اليومي في يقظته واستحمامه ومع لعبه وملابسه:

"كل يوم بالماء والصابون أسبح وألعب وبرجلبي ويدبي أضرب ولا أتعب".
وكم كان بودي لو أن الكاتبة أبقت على لغة يشترك فيها المذكر والمؤنث حتى تصلح لكليهما - كما هو الحال في النموذجين أعلاه؟ لكنها ما تلبث أن تواصل على لسان المؤنث {"لما أصير جوعانة وأبكي وأصرخ زعلانة"}.

صحيح أنها أثارت الانتباه إلى المجال المعرفي والعاطفي للطفلة كذلك، ولكن هذه اللغة يجب أن تتغير تبعًا للمخاطب، بالطبع فإنها كانت تدرك هنا أنه سيأتي دور الراوي الذي يغير لغة المتكلم حسب جنس الطفل.

لقد مضت الكاتبة في قصتها هذه للزهة مع الأطفال الرضع لتعريفهم على حيوانات البيت، وهي وبالتالي تقدم في كتابها الصورة الجميلة التي سيراهما الرضيع، وإدخال الأم تقلد كذلك أصوات هذه الحيوانات حتى تزيد من متعة الطفل. إنها تصحبه كذلك إلى الأزهار فتقول :

"بالجنبينة قعدت. وردة حمراء قطفت ورائحتها الحلوة شمت" (ولا أرى غضاضة أن تقول "شميت").

فاللغة هنا هي لمرحلة ما قبل التعليم الرسمي، ثم إن "شميت" لها من يبررها حتى في اللهجات الفصيحة.

وها هو الرضيع يتعرف على الأقرباء أيضًا، فالرضيع يتململ ويقول "جدتي بحضنها أخذتني وصارت تغنى لي وترقصني ..."

فمثل هذا الموقف - كما لا يخفى - يؤثر على أحاسيسه وارتباطاته العاطفية، ويبعث لديه الأمان والمحبة، ويدل بأنه جزء من المجموع، وبأنه مشارك له حتى بنظراته الراضية المشرقة والبراقة.

سلسلة فراس

إن التجربة الذاتية العاطفية والواقعية إذا صيغت حبكتها بصورة مثيرة يكون لها أهميتها في خطاب الطفل. ثم إن التجربة القصصية التي ترتبط بحياة الطفل وواقعه هي وسيط فاعل يعمل على لقاء الفرد مع ذاته. من هنا تأتي أهمية مخاطبة المشاعر المكبوتة، وخاصة في حالات الخوف والفرح والتردد والاكتئاب، وتظل الأرضية النظرية أو المنطلق تتمثل في مساعدة الطفل في التخلص من حالات الإحباط، كأنه يتحدث بمشكلته إلى صديق أو يتوجه لأب أو مستشار، أو ينفس عن نفسه بأشطة يرغب بها... وهذا ما يعرف بـ "التسامي".

تحكي قصة "فراس في رحلة المدرسة" عن تجربة طفل في الصف الأول.

إنها مرحلة واقعية جديدة - مرحلة الانتقال من صفات الروضة (الرحب الذي فيه الحرية النفسية) إلى عالم أكثر تقييداً:

"لما رجعت للبيت حدثت أمي عن اليوم الأول في المدرسة..
لحقتي أخي نورا تركض..."

”نورا أخي الصغيرة تريد أن تدرس معي. أجابتي أمي: هي تريد أن تجلس بجانبك. أعطها ورقة وأقلاماً ملونة... في المساء بعد أن رجع أبي من عمله اشترينا حاجات وماكولات الرحلة.“.

وجدنا من خلال هذه النصوص وأمثالها أن الكاتبة حاولت أن تراعي مرحلة التطور اللغوي وزيادة المفردات، وحاولت كذلك أن تعبر عن الانتماء الذي هو عنصر عاطفي هام في جميع مراحل النمو، فالانتماء لديها هو الانتماء العائلي والانتماء الاجتماعي.

كما وجدنا أهمية أن يكون الطفل ”بطلاً إيجابياً“ بالنسبة لأخته الصغيرة، فهذا من شأنه أن يقوى لديه التجربة الاجتماعية، وهذا ”البطل“ بالنسبة لأخته هو نموذج إيجابي يحلو لها تقليده.

أما التجربة العاطفية القاسية التي مر بها فراس عند ضياعه في شاطئ عكا فإن فيها درسًا يعلمه كيف يصمد ويرفض الاعتداء الجنسي عليه، وكيف يعبر بصدق عن إشباع عاطفته بالبحث عن الأمان والاطمئنان.

ولا تنسى الكاتبة أن من طبيعة الطفل أن يبحث عن قصص المغامرة، ذلك لأنه يحب الغموض، ومحاولة كشفه، والتوصل للحقيقة فيما بعد.

إهـا تروي بأسلوب يجذب الطفل ويثيره:

”خلعنا أحذيتنا وركضنا على الرمال. نرش بعضنا بالمياه. قلت لصاحبي: أنا أحب الأصداف. هــا نجــعــها. بــعــدــما جــمــعــتــ الكــثــيرــ الكــثــيرــ. نــظــرــتــ حــوــلــيــ فــلــمــ أــجــدــ أــحــدــاــ. ســأــلــتــ رــجــلــاــ أــمــامــ الدــكــانــ: أــينــ مــعــلــمــتــ؟ أــينــ أــصــحــابــيــ...“

وبعد برهة القلق والخوف تتابع القصة:

”خفت وركضت لا أعرف أين أذهب“

وتأتي لحظة الانفراج أو الحل:

”إذا بشرطــيــ يــقــفــ خــلــفــيــ وــيــســأــلــيــ:“

هل أنت فراس؟!"

ومن جهة أخرى فإن الكاتبة كانت تعني أهمية انتصار الخير على الشر وإبراز عنصر التفاؤل على الإحباط والقصور، وهي تدرك كذلك أن أسلوب الوعظ والإرشاد فيه إملاء على الطفل وقسر لرغباته، ففي قصة "أسنان كشكش" مثلاً أرادت أن يدرك الطفل أهمية التقليل من الحلوي حفاظاً على أسنانه من التسوس، فكشكش (البطل) شخصية حيوية اختارت اسمه لأنه مضحك أولاً، وغير وارد في مسميات الأطفال ثانياً. (وإلا فإن ذلك سيكون مداعاة للضحك على من يحملون هذا الاسم افتراضاً).

تبدأ القصة هكذا:

"أكل كشكش حلويات"

وملبيس بالمعجنات

وما غسل أسنانه طول اليوم

"ولا حتى قبل النوم"

وبالطبع فإن هذا السلوك يجذب انتباه الطفل، لأنه غالباً ما يشبهه في سلوكه هو، فيتولد لدى الطفل فضول المعرفة حتى يعرف ما يمكن أن يحدث لشكشك:

"السوس سبب لشكشك الأوجاع والعقاب،"

والنوم من عينيه طار وغاب

شكشك بك وبك، ولإمه حكى وشكأ"

ويتضح الهدف القصصي عن طريق الإفصاح عن البكتيريا التي هي سبب عذاب الطفل.

وتاتي أهمية الرسم الإيضاحي الذي هو يوضح حالة كشكش المتألم من أسنانه المتورمة، حيث تهمرم دموعه.... ورد الفعل سيكون طبيعياً بعد ذلك:

”تناول معجون الأسنان. وعلى الفرشاة عصر.... وللهجوم تحضر. فرك أسنانه وفرك والفرشاة حرك وحرك وما ترك“

وبالطبع فإننا نلاحظ أهمية الأفعال بحركيتها وتكرارها وبإغرائها للتمثيل.

وقد اختارت الكاتبة شخصية (الطائر) المصاحب للطفل، وهو يلعب دور الضمير أو الرقيب الداخلي للطفل. إنه يوجه البطل ويحميه من المخاطر... فالطائر بنّه كشكش:

”كشكش يا كشكش“

حلو يا كشكش

لا تنس تفرك أسنانك

كشكش يا كشكش“

وبهذه الصياغة قد يتذكر الطفل مثلاً لحن ”نعنع يا نعنع أخضر يا نعنع“ فينبعث في جوانحه جانب يرد تنفيهياً أو ترقيصياً في أكثر من قصة.

وتظل العبرة تحمل التأثير التربوي، وذلك بعد أن اندمج الطفل بالحبكة القصصية المثيرة، وبالتالي فإن احتمالات تغيير سلوكه السلبي ستكون أقوى، لأنها كانت مقدمة بطريقة غير مباشرة وبدون إكراه. وحبكة القصة يجب أن تلامس الواقعية الطبيعية المناسبة للفئة العمرية التي ينتمي إليها الطفل، فالواقعية (البعيدة عن المثالية) من شأنها أن تجعل الطفل يشارك ويتماشى، وبالتالي يتلقى ويتأثر. حتى لو كانت هذه الواقعية فيها مشاعر سلبية فإن ذلك وارد أيضاً، لا ليكون عبرة، وإنما ليكون وصفاً لواقع، ولنأخذ مثلاً:

”لما ولد ياخذ من كشكش لعبة، يزعل منه، يعضه، ويضرره ضربة صعبة.“

فهذا السلوك المرفوض تربوياً يجذب انتباه الطفل، ويضعه أمام تساؤل ودهشة لا يخلص منها إلا بوجود الطائر (الضمير) :

”لا لا يا كشكش. هذا صاحبك أنت تحبه وهو يحبك.“

هنا نجد كشكش يقدم اعتذاره للمعتدي عليه.

أما قصة "جسم كشكش" ففيها توعية جنسية قلما نحفل بها في تربيتنا لأطفالنا، فنحن نرتبك إذا واجهنا أبناءنا وبناتنا بأسئلة جنسية مباشرة، ويبداً التصنيف الجنسي لدينا، وتكثر الفاظ "عيب" و"حرام".

الكاتبة تعرف أهمية أدب الأطفال وسيلة ووسيطةً تربوياً صحيّاً للدخول إلى موضوع صعب وشائك كهذا الموضوع.

"في يوم كشكش كان في الحمام

سأل أمه عن جسمه باهتمام

عرف أن جسم الصبي وتركيبه

"مثل جسم بابا حبيبه"

والقصة تروي لنا كيف أن الأم تطلب من ابنتها أن يحافظ على جسمه من أي اعتداء جنسي قد يقع عليه:

"جسمك حلو وقوى دافع عنه، وحافظ عليه،

وعند الخطر لا تسمح لأحد أن يؤذيه"

وتتحدث القصة عن شخص غريب يطلب مراقبة الطفل، حيث يغريه بالألعاب والحلوى، وبعد أن يخطئ وينسى توصية أمه كان الطائر ينبهه ويقول:

"لا لا يل كشكش . لا تمش وحدك مع الأغراط!"

وتأتي القصة على محاولات الطفل المقاومة لهذا الغريب، وكأنها توحى للطفل أن يكون مسؤولاً عن جسمه، وألا يخاف من أحد حتى ولو كان أكبر منه أو أقوى.

"كشكش نط عليه وعضه. كشكش هجم على الغريب، وبالحانط رأسه لطم. بکوعه ورجليه دفش وضرب. والغريب خاف منه وهرب"

وفي رأي أن الطفل عندما يستمع إلى حكاية كشكش وكيفية خلاصه في هذا المقطع الدرامي سيشعر في النهاية بالراحة النفسية، وسيسترد النفس الذي كان قد كاد يتوقف. فموقف البطل الشجاع وتغلبه على الشرير يجعل الملتقي يتضامن معه، بل سيكون هذا البطل في سلوكه نموذجاً أعلى. فالطفل اعتمد على نفسه في حل المشكلة، لذا فإن التمايل معه يؤدي به إلى التفريغ أو التنفيس أو في لغة المسرح إلى "التطهير" - (كاتارسيس) حيث يتخلص من المشاعر الضاغطة التي تبعث القلق في نفسه.

تبدأ قصة "لوذه في الشارع" هكذا :

"لوذه بنت حلوة ولطيفة، غرفتها مرتبة.. وثيامها نظيفة... كل يوم تغسل وجهها وأسنانها.... وللروضة تلبس لوحدها فستانها"

فالشكل المسجوع من شأنه أن يثير الانتباه للسرد، وذلك بسبب الإيقاع الصوتي المتشابه. ويبدو أن السجع غير المتكلف يأتي طبيعياً تلقائياً يحرك مشاعر الطفل ويجعله مشاركاً في الحدث، فإذا حكى أحد لطفل قصة مسجوعة، فغالباً ما سيقابل كل سجعة بضحكه، وسيرى أن الطفل يلح أيما إلحاح أن يعيد الراوي القصة ويعيد.

موضوع قصة (لوذه) يعالج مشكلة الأخطار، فلوذه تمر في محاولات استكشاف البيئة المحيطة، وتتعرف على العالم الجديد المحيط بها، وهي ترغب بالقيام بالعديد من الأنشطة.

إنها ترغب أولاً أن تتمتع باللعب بمفاتيح السيارة، ولوذه التي ضيّعت المفاتيح، وظلت تبحث عنها خسرت المشوار الحلو الذي كانت، ستشارك فيه تلك الساعة. وهناك قصة أخرى عن دمية لوذه التي كادت تدهس... لو لا أن تداركها الجّد، وأنقذها من عجلات السيارة.

إنها قصص مختلفة تحاول أن تجذب الطفل إلى أجزاء من عالمه، فتصاحبه لترشد، أو لتوجيهه دون أن تقدم ذلك بصورة مباشرة: "افعل" أو "لا تفعل"!

هي حكايات مستقاة من عالم الطفولة الذي يجب أن يتمثله الكاتب حتى يستطيع سبر غوره.

والكاتبة التي ثقفت النظريات التربوية للطفولة ودرست العرض العلاجي عن طريق النص كانت تنطلق في كتابتها نحو بناء عالم طفولي جميل - عالم يشيع فيه الأمان والحب، ويكون الطفل مبدعاً جريئاً، يقول كلمته ويدافع عن جسمه.

إلهام صاحبت الطفل بدءاً من سن الرضاعة لتعايش تجاريها، وتمثل مناغاته وصولاً إلى انطلاقه نحو حياة يسود فيها الجمال والأصول المرعية، والقيم التربوية.

وبعد،

فإن الكاتبة هي من القلة القليلة التي تكتب من خلال رسوخ المعرفة التربوية، وعن اطلاع على النظريات التربوية وأضطلاع بمسؤولية جسمية تراها واجباً مفروضاً عليها. وعائلة إلهام قد شقت لنفسها طريقاً بناء تصاحب فيه الأطفال وترشد فيه الآباء.

إنها حكاية الحرف والرسمة والإجراء الفني - تتضافر جميعها لتصب في نهر العطاء والوفاء.

المراجع

مؤلفات إلهام دويري تابري:^{*}

- أنا إسمي هنا. رسم فاتن قطوف. الناصرة: دار الإلهام، 1998.
- فراس في رحلة المدرسة. رسم فاتن قطوف. الناصرة: دار الإلهام، 2001.
- كشكش يحب أن يطير. رسم كمال تابري. الناصرة: دار الإلهام، 2001.
- جسم كشكش. رسم كمال تابري. الناصرة: دار الإلهام، 2001.
- أسنان كشكش. رسم كمال تابري. الناصرة: دار الإلهام، 2001.
- لوزة في الشارع. رسم كمال تابري. الناصرة: دار الإلهام، 2001.

مصادر مساعدة:

- الحديدى، علي. في أدب الأطفال. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1986.
- شحاته، حسن. أدب الطفل العربي. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1993.
- منشورات الاتحاد العام للأدباء العرب. أدب الطفل العربي. عمان: مؤسسة شومان، 1992.
- نجيب، أحمد. فن الكتابة للأطفال. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1986.
- الهيقي، هادي. أدب الأطفال (فلسفته وفنونه ومسالكه). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.